بسم الله الرحمن الرحيم

منتدى الرواية

المِنَصْةُ الرَقَمَية لمُدَارَسَةِ الرِوايَات السُودَانية

جلسة النقاش رقم (2)

رواية أزمنة الترحال والعودة– الحسن محمد سعيد

السبت 2020/06/13م

قراءة نقدية: الدكتور عاطف الحاج سعيد

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته، مرحباً بالجميع في الجلسة الثانية من المدارسة التي تنظمها **المِنَصْةُ الرَقَمَية لمُدَارَسَةِ الروايات السودانية**، وهي منصة مفتوحة لكل النقاد والكتاب والمهتمين بالرواية في السودان، وننوه بدءاً إلى أن الورشة ليست منصة أكاديمية مختصة ولا تلزم المشاركين بتقديم أوراق نقدية محكمة وصارمة، بل هي منصة شعبية تعقد فيها مؤانسات أدبية مفتوحة حول الرواية المختارة للنقاش، وتهدف المنصة إلى الاحتفاء والتنويه بالروايات السودانية، وتسليط الضوء عليها، والتشجيع على قراءتها. وتهدف كذلك، إلى الارتقاء بالرواية السودانية وتطوير أساليب كتابتها عبر النقاشات المفتوحة التي يشارك

فيها روائيون ونقاد وقراء من أجيال وخلفيات مختلفة. يشرف على إدارة المنصة مؤقتاً الأستاذ محمد الخير حامد والأستاذ أحمد الشريفي وشخصي عاطف الحاج سعيد. اتفقنا على تثبيت رئيس الجلسة والمتداخلين الرئيسيين للندوتين الثانية والثالثة، باعتبارها تأسيسية، وسنفتح المشاركة بعدها لجميع المهتمين مع التأكيد على أن الأولوية ستكون للنقاد المختصين والممارسين.

خصص ورشة اليوم كما هو معلن لرواية "أزمنة الترحال والعودة" لكاتبها الروائي الكبير الأستاذ الحسن محمد سعيد، وهو من الأسماء البارزة في سجل الروائيين السودانيين وقد بدأ نشر أعماله الأدبية منذ العام 1960 ونشر حتى الآن سبع روايات. فقد حملت روايته الأولى اسم "عطبرة" في اشارة إلى المدينة التي ولد بها في العام 1940، وقد نشرت الرواية في العام 2005، ثم تلتها رواية "أزمنة الترحال والعودة" التي صدرت في العام 2005 أيضاً، تلتها رواية "أبو جنزير" في العام 2007 عن مركز عبادي للدراسات والنشر في صنعاء باليمن، ثم رواية "ثلوج على شمس الخرطوم" التي نشرت في العام 2010، وحملت روايته الخامسة اسم "صمت الأفق" وصدرت في العام 2012، ثم رواية الفحل التي صدرت في العام 2013، ورواية "البقعة" في العام 2015 وأخيراً رواية "رجل من دلقو" في العام 2019. ويشير تتابع إنتاج الحسن محمد سعيد، على مثابرته، وايمانه بمشروعه السردي، منطلقاً من قناعةٍ راسخةٍ في قدرة الرواية على التعبير الجمالي وعلى مقاربة مختلف الموضوعات التي تشغل الإنسان.

رواية "أزمنة الترحال والعودة" هي ثاني رواية ينشرها أستاذنا الحسن محمد سعيد حيث صدرت طبعتها الأولى في العام 2005 من مركز عبادي للدراسات والنشر في صنعاء في 266 صفحة من القطع المتوسط، بينما جاءت نسختها الإلكترونية في 166 صفحة موزعة على ثمانية فصول حَمَلت أرقاماً. //// ومن

المهم أن نشير إلى مسألتين قبل البدء في مناقشة هذه الرواية، المسألة الأولى هي: أن جميع روايات الحسن محمد سعيد نشرت بعد العام 2005 رُغْمَ أن تجربته الكتابية قد بدأت منذ ستينيات القرن المنصرم، ويشير هذا الأمر إلى فداحة مشكلة النشر التي تواجه الكاتب السوداني وتعيق النمو الطبيعي لتجربته بسبب بقاء أعماله قابعة في ظلام الأدراج بعيداً عن التداول على أيدي القراء، الذين يحفِّز تفاعلهم على استمرار الكتابة، وبعيداً عن إضاءات النقاد التي تدفع الكاتب ليطور من أساليبه الكتابية. المسألة الثانية هي: أن رواية "أزمنة الترحال والعودة" تمثل الرواية الثانية التي ينشرها أستاذنا الحسن محمد سعيد، وربما تكون الرواية الأولى التي يكتبها، وواضح أنها كُتبت خلال السنوات الأولى لنظام الإنقاذ البائد، ولا شك أن الرواية الأولى لكل كاتب دائماً ما تحمل عنت البدايات ومشقتها ويتحسس الكاتب أثناء كتابتها أدواته الإبداعية ويختبرها للمرة الأولى. إذاً هذه الرواية التي نناقشها اليوم لا تُعبِّر عن النضج الذي بلغه مشروع الحسن محمد سعيد في رواياته اللاحقة، وكل ما سيرد في المناقشات لا يمثل حكماً على مجمل التجربة السردية لأستاذ الحسن وإنما فقط على هذه الرواية المبكرة.

سأتخذ **مدخلي لقراءة هذه الرواية على إ**صدار بعض الاقتباسات التي تشير إلى طريقة مقاربتي للنص. يقول لوكاتش: إن الرواية تمثل طرحاً لنوع من أنواع العلاقة بين الانسان و"التاريخ"، **أو هي نوع من أنواع الوعي بـ** "التاريخ". **بحسبان أنها تطرح أ**نواعاً من الاستجابة للتحديات التي تلقيها التحولات الاجتماعية المستجدة في الزمان على الأفراد. ومن ثم، تصبح ال**وضعية التي تتعامل معها الرواية إ**نما هي وضعية "تاريخية"، أي مرتبطة بالتحولات الاجتماعية التي تتم في الزمان والمكان المحددين. **كما أن الرواية تقوم على إ**براز نوعية البشر في ضوء وجودهم الاجتماعي الذي يقوم على انفصام العرى داخل الوحدة الاجتماعية بين الفرد

والجماعة، من ناحية. **وأن** الفرد قد كُتب عليه أن يمارس معركته اليومية مع الجماعة /المؤسسة، بأشكالها القمعية والاستغلالية المتعينة، التي تحاول أن تُقَوْلِبه وتسلبه جوهر حريته"، يمك**ن النظر بشأن هذه الاقتباسات في** كتاب "نظرية الرواية وتطورها" **لجورج لوكاتش، و**مقال " نقد الرواية بين الاتجاه الاجتماعي والاتجاه البنيوي" لكاتبه الناقد صلاح السروي.

أحكمَ الراوي في " أزمنة والترحال والعودة" عقدة الرواية منطلقاً من اللحظة التي أبرز فيها بطل الرواية (معروف) وعياً نقدياً باللحظة التاريخية التي كان يعيشها، فقد كتب معروف مقالاً صحفياً ناقش فيه الفشل الذي لحق بالممارسة الديمقراطية خلال الفترة التي أعقبت ثورة أكتوبر 1964 وحتى انقلاب 25 مايو 1969 ونشر المقال عقب موكب 2 يونيو 1969 الداعم لثورة مايو المنقلبة على ديمقراطية ثورة أكتوبر، وكان وعي معروف باللحظة التاريخية، وتمثله لنقائصها، وانتقادها، ومن ثمّ تحميلها للمؤسسة الاجتماعية القائمة، أكثر مما تتحمله طاقة ممثليها، لذا، دفع معروف ثمن وعيه عزلةً واقصاءً وفُصل من وظيفته العامة بتهمة العمالة، وكان سيُسجن لولا تدخل شعيب وهو شخصيةٍ سعى الراوي، بإلحاحٍ مُضْجِّر للقارئ، لأسطرتها على طول الرواية. يتعلق معروف بشعيب بشكل لا تبرره الرواية بما يكفي، ويتخذ منه مرجعية فكرية وإنسانية، ويظل حاضراً في ذهنه عند جميع تنقلاته القلقة في دول عديدة. المقال الذي كتبه معروف مثّل لحظة فارقة في حياته بعدها لا يشبه ما قبلها، كان وعياً ينهض ضد الوعي السائد في ذلك السياق التاريخي حيث تمجد الدكتاتوريات العسكرية التي تتدثر بغطاء القومية العربية، تأثراً بكاريزما عبد الناصر التي كانت طاغية في ذلك الوقت وبالاشتراكية تأثراً بالمد الشيوعي في حقبة الستينيات. ويدفع الصراع الذي نشأ لأن يشعر معروف بأنه مستهدف ومهمش ونشاز. لذا يقبل أول عرض للعمل

خارج السودان. فيغادر معروف إلى نيجيريا مُدرِّساً للأدب العربي في واحدة من جامعاتها. تمثل مغادرة معروف للسودان انكساراً لحلمه الوطني، واستسلامه لهذا الانكسار، لذا يرافقه إحباطه الشخصي إلى نيجريا وسريعاً ما يتحول إلى هشاشة نفسية تتجلى في تعلقه السريع بالموظفة النيجيرية التي تدعى (كانو) والتي استقبلته في المطار، وهو تَعَلُّقٌ لا يشبه شخصيته ولا تكوينه المعرفي.

رغم أن أخبار التغييرات التي أحدثتها الثورة الجديدة في السودان ظلت تصله بالتتابع في منفاه الاختياري، إلا أن تفاعله معها ظل ذهنياً وانغمس - إمعاناً في هروبه من الانكسار والوعي المهلك- في علاقة مع طالبة بريطانية سبق أن عمل والدها في السودان، وكان شعيب قد عاونه على استكمال مشاريع أنثروبولوجية، لكن نص الرواية عجز أن يحقن هذه العلاقة باي شكل من أشكال الصراع، فظلت علاقة سطحية قوامها إنجذابٌ جنسي وإعجاب مسطحٌ لـ"جيني" برسومات وأشعار "معروف". ربما يتوقع القارئ الحصيف أنه بعد أن يغادر "معروف" السودان ويصبح بمنأى عن السياق الاجتماعي الذي لفظه وفقد بالتالي تفاعله المباشر معه، أن يتحول الصراع داخل "معروف" إلى: إما صراع تثيره الأسئلة الوجودية الكبرى، أو صراع يكون مبعثه صراع الحضارات والثقافات، بما أن معروف تنقل خلال رحلته في أكثر من فضاء ثقافي مغاير.

نتيجة لغياب الصراع أصبح السرد مرتبكاً. أقصد بالسرد الطريقة التي ينقل بها الرواي الأحداث من النقطة (أ) إلى النقط (ب). وإيجاد السببية لهذا الانتقال. مثلاً يقرر معروف بغتة مغادرة نيجيريا إلى لندن، لم يُقدِّم النص تبريرات كافية لهذه الرغبة في الانتقال، وساعدته جيني في أن يغادر إلى لندن وتخلَّت عنه بسهولة، رغم أن الرواي لم يتوقف عن التغني بشغفهما، وبمحبتهما لبعضهما البعض. وينطبق ذات السيناريو على قرار مغادرته لندن إلى اسكتلندا.

أختم مداخلتي القصيرة بالإشارة إلى ثلاث نقاط: أشير في النقطة الأولى إلى أنه رُغْم أن الأوضاع التي وجد معروف نفسه فيها طوال تنقله هي أوضاع معقدة بطبيعتها، لكن استجابته تجاهها كانت ساذجة وسطحية مما أفقد النص سمة الصراع التي تدفع بالحدث أفقياً ورأسياً. أشير في النقطة الثانية إلى أن الكاتب سعى في سرديته لمحاورة روايتين شهيرتين هما رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح، ورواية (زوربا اليوناني) لكاتبها نيكوس كازنتاكيس، وذلك بالتداخل النصي مع شخصياتها وأفكارها واتخاذها منصة لإنتاج سرديته الخاصة. يقول الرواي في ص 60 "اجتاحته الرغبة المجنونة، فهي تريده جلفاً وشهوانياً، مصطفى سعيد في جبروته وقسوته، بعد أن يضمِّخ المكان بطيب البخور والصندل، لا لن يكون في جبروت وقسوة مصطفى السعيد ولكنه سيتحول إلى زوربا القادم من أرض الصحراء، والنيل، والنخيل، والغابة، والسافانا. ولن يخذلها على لسان زوربا:

It is shame a woman calls a man to her bed and he never comes

سيعي الدرس ولن يخذل زوربا" ص 60.

والعبارة بالإنجليزية في الاقتباس السابق يمكن أن تترجم في العربية بالجملة التالية:

من المخجل أن تدعو امرأة رجل لفراشها ثم لا يأتي أبداً!

وأظن هذا التعالق النصي بين نصي (زوربا اليوناني) و(موسم الهجرة إلى الشمال) من جانب، ونص "أزمنة الترحال والعودة" من جانب آخر لم ينجح في استدعاء المعاني التي احتواها النصان الأولان، كما لم ينجح في توليد معانٍ جديدة سكتا عنها، والاستدعاء والتوليد هما بعض الوظائف التي يؤديها التناص داخل النص. في النقطة الثالثة أشير إلى أن كاتب الرواية الحسن محمد سعيد، كان مشغولاً، لحظة كتابته

لهذه الرواية بالأسئلة الفكرية والثقافية التي كانت تلح في السياق التاريخي الاجتماعي الممتد خلال عشرين عاماً من العام 1969 حتى العام 1989 وهو الفضاء الزماني الذي دارت فيه أحداث الرواية التي استجاب نصها بدرجة ما لرصد التحولات الجوهرية التي جرت.

وشكراً جزيلاً..